بسم الله الرحمن الرحيم

٢٧ – سُورَةُ النَّمْلِ

قال المهايمىّ : سميت بها ، لاشتمالها على مقالتها ، الدالة على علم الحيوان بنزاهة الأنبياء وأتباعهم ، عن ارتكاب المكاره عمداً . وهو مما يوجب الثقة بهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وهى مكية وآياتها ثلاث وتسعون .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (طسٓ ، تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ)

[٢] (هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٣] (ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

« طسٓ ، تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ » الإشارة إلى نفس السورة. والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل. أى تلك السورة آيات القرآن الذى عرف بعلوّ الشأن. وآيات كتاب عظيم المقدار ، مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواعظ والاعتبار . « هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » أى هو هدى من الضلالة، وبشرى برحمة الله ورضوانه، لمن آمن وعمل صالحاً من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأيقن بالآخرة ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها .

لطيفة :

تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص على ما فى (الكشاف) .

ولصاحب (الانتصاف) وجه آخر قال : لما كان أصل الكلام (وهم يوقنون بالآخرة) ثم قدم المجرور على عامله ، عناية به، فوقع فاصلا بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلى المبتدأ خبره، وقد حال المجرور بينهما ، فطرّى ذكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقى على حاله مقدما : ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها ، بعد ما يوجب التطرية . فأقرب منها أن الشاعر قال :

سَلْ ذُو وَعَجِّلْ ذَا وَأَلْحِقْنَا بِذَا الـ ... الشَّحْمِ ، إِنَّا قَدْ مَلَلْنَاهُ بَجَلْ

والأصل (وألحقنا بذا الشحم) فوقع منتصف الرجز أو منتهاه (على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل) عند اللام. وبنى الشاعر على أنه لابد، عند المنتصف أو المنتهى، من وقيفة ما . فقدر بتلك الوقفة بُعْدًا بين المعرّف وآلة التعريف . فطرّاها ثانية . فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرّر ولا كلفة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير .

ثم قال : فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل . والله أعلم .

ثم تأثر أحوال المؤمنين بأحوال الكفرة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)

[٥] (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ)

[٦] (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)

[٧] (إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٨] (فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

«إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ »أى مددنا لهم فى غيّهم ، فهم يتيهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاءً على ما كذّبوا به من الدار الآخرة والجزاء على الأعمال كما قال[1] تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ) « أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ» أى أشد الناس

(١) [٦ الأنعام / ١١٠] .

خسرانا للنجاة وثواب الله . « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » أى لتؤتاه وتلقنه من عند حكيم فى أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليّها وخفيها . فخبره هو الصدق المحض والحكمة البالغة ، كما قال[1] (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) والجملة مستأنفة ، سقيت بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم ، تمهيداً لما يعقبه من الأنباء الجليلة. وقد بدأ منها بما كان من أمر موسى عليه السلام واصطفائه وإيتائه من الآيات الباهرة ما أذلّ معانديه ، وجعلهم مثل السوء . فقال سبحانه « إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ » أى حين قفل من مدين إلى مصر ، وأضلّ الطريق « إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا » أى رأيتها « سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » أى عن الطريق « أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ » أى بشعلة مقتبسة « لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أى تتدفئون به « فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » أى بورك مَن فى مكان النار ومَن حول مكانها. ومكانها البقعة التى حصلت فيها . وتدل عليه قراءة أُبىّ (تباركت الأرض ومن حولها) وعنه : بوركت النار . والذى بوركت له البقعة، وبورك من فيها وحواليها، حدوث أمر دينىّ فيها ، وهو تكليم الله موسى ، واستنباؤه له ، وإظهار المعجزات عليه . ورب خير يتجدد فى بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير فى أقاصيها ويبثّ آثار يمنه فى أباعدها . فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذى جرى فى تلك البقعة المباركة ؟ كذا فى (الكشاف) .

وقال السمين : (بارك) يتعدى بنفسه . فلذلك بنى للمفعول: باركك الله، وبارك عليك، وبارك فيك وبارك لك . والمراد بـ (من) إما البارى تعالى وهو على حذف مضاف ، أى من قدرته وسلطانه فى النار . وقيل : المراد به موسى والملائكة . وكذلك قوله (وَمَنْ حَوْلَهَا) وقيل المراد بـ (من) غير العقلاء . وهو النور والأمكنة التى حولها . انتهى .

ولذا قال الزمخشرىّ : والظاهر أنه عامّ فى كل من كان فى تلك الأرض وفى ذلك الوادى

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] .

وحواليهما من أرض الشام . قال : ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة فى قوله[١] (وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ) وحقت أن تكون كذلك. فهى مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومهبط الوحى إليهم ، وكفاتهم أحياء وأمواتا .

ثم قال : ومعنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه، هى بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه فى أرض الشام كلها البركة . انتهى .

وقال القرطبىّ : هذا تحية من الله تعالى لموسى، وتكرمة له . كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا[٢] (رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) .

وعن ابن عباس : لم تكن تلك النار نارا ، وإنما كانت نوراً يتوهج .

وعنه : هى نور رب العالمين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى عبيدة عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله لاينام ولا ينبغى له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل . حجابه النور أو النار . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شىء أدركه بصره) ثم قرأ أبو عبيدة : أن بورك من فى النار ومن حولها .

قال ابن كثير: وأصل الحديث مخرج فى صحيح مسلم[٣] من حديث عمرو بن مرّة «وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ» أى الذى يفعل مايشاء ، ولايشبهه شىء من مخلوقاته ، ولايحيط به شىء من مصنوعاته ، وهو العلىّ العظيم المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات . قاله ابن كثير .

وقد أفاد أن المقام اقتضى التنزيه ، دفعا لإيهام مالا يليق من التشبيه. ثم إن موسى عليه السلام ، أعلمه تعالى بأنه هو الذى يكلمه ويناجيه ، لامالك ولا خلق آخر ، بل ذاته العلية المستحقة للألوهية والنعوت القدسية ، فقال سبحانه :

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧١] . (٢) [١١ / هود / ٧٣] .

(٣) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٥ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[١٠] (وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ)

[١١] (إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

[١٢] (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ، فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ)

« يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » وفى إيثار هذه الأسماء الجليلة سرّ بديع. وهو الإشارة الجُمْلية إلى روح إرساله عليه السلام. أى: أنا الله لا تلك المعبودات التى عكف عليها قوم فرعون، العزيز الغالب القاهر لكل عات متمرد، الحكيم فى البعثة والإرسال، والتفضل والإفضال . ثم أمره تعالى أن يلقى عصاه من يده ليريه دليلًا واضحا على أنه القادر على كل شىء، بقوله « وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ » هو ضرب من الحيات، أسرعه حركة وأكثره اضطرابا « وَلَّىٰ » أى من الخوف « مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع على عقبه من شدة خوفه « يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ » أى لحفظى لهم وعنايتى بهم وعصمتى إياهم مما يؤذيهم . وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة . وتشجيع له بنزع الخوف . إذ لا يتمكن من أداء الرسالة ، مالم يزل خوفه من المرسل إليه . وقوله تعالى « إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ » استثناء منقطع. استدرك به ما عسى يختلج فى الخلد من نفى الخوف عن كلهم . مع أن منهم من فرطت منه صغيرة ما ، مما يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنهم وإن صدر عنهم شىء من ذلك ، فقد فعلوا عقيبه ما يبطله ، ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة. وقد قصد به التعريض بما وقع من

موسى عليه الصلاة والسلام ، من وكزه القبطىّ والاستغفار . قاله أبو السعود . وسبقه الزمخشرىّ حيث قال : يوشك أن يقصد بهذا ، التعريض بما وجـد من موسى . وهو من التعريضات التى يلطف مأخذها، وسماه ظلما كما قال موسى (رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاْغْفِرْلِى) ثم أشار تعالى إلى آية خارقة غير العصا ، آتاه إياها ، بقوله « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ » أى آفة كبرص « فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ » أى غيرها تؤتاها، إذا جحد فرعون رسالتك . وهى ضرب ماءالنهربالعصا فينقلب دما . وإصعاد الضفادع على أرض مصر . وضرب التراب فتمتلئ الأرض قملا . وإرسال الجراد عليهـم . والوباء الشديد . وإصابة أجسادهم بالقروح والدمامل والبثور . وإهـلاك حصادهم بالبرد الشديد . وتغشيتهم بظلام كثيف، على ماروى. وفى (تسع) أوجه: أحدها أنها حال ثالثة. أى تخرج آية فى تسع آيات. والثانى أنها متعلقة بمحذوف ، أى اذهب فى تسع . والثالث أن يتعلق بقوله (وَأَلْقِ عَصَاكَ) (وَأَدْخِلْ يَدَكَ) أى فى جملة تسع آيات. و(فى) بمعنى (مع) « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » أى مرسلا به إلى فرعون « وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ » أى خارجين عن الحدود، فى الكفر والعدوان . وهذا تعليل للإرسال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (وَجَحَدُواْ بِهَا وَاْسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَاْنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ اْلْمُفْسِدِينَ)

[١٥] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ، وَقَالَا اْلْحَمْدُ لِلَّهِ اْلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ اْلْمُؤْمِنِينَ)

[١٦] (وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ، وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ)

«فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً »أى ظاهرة بينة« قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا۟ بِهَا » أى كذبوا بها بألسنتهم « وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ » أى عرفت أنفسهم أنها آيات يقينا، لاسيما عند إلقاء السحرة ساجدين « ظُلْمًا » أى للآيات ، بتسميتها سحراً كقوله[1](بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ) ولقد (ظلموا بها) « وَعُلُوًّا » أى تكبراً عن الانقياد لموسى « فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى من إهلاكهم بالإغراق ، لغرقهم فى بحر الفساد والإفساد « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا » أى بالقضاء بين الناس ، وحكمة باهرة « وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ» أى العلم والحكمة والنبوة أو الملك «وَقَالَ»أى تحدثا بنعمة الله وتنويها بمنته« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ » أى فهم صوته « وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ » أى البين الظاهر . وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة . كما قال رسول الله ﷺ[2] (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) أى أقول هذا القول شكرا ، ولا أقوله فخراً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[١٨] (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

---

(١) [٧ / الأعراف / ٩] . (٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنة، ١٣ ـ باب فى التخيير بين الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، حديث رقم ٤٦٧٣ .

[١٩] (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ)

[٢٠] (وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ)

[٢١] (لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

[٢٢] (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)

[٢٣] (إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)

[٢٤] (وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)

[٢٥] (أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ » أى جمع له عساكره « مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ » أى رأتهم متوجهين إلى واديها « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بمكانكم « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا » أى تعجبا من حذرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بنى نوعها . وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة ، فيما بين أصناف المخلوقات ، التى هى أبعدها من إدراك أمثال هذه

الأمور ، وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم مرادها . قاله أبو السعود « وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ » أى ألهمنى شكرها « وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى بحجة تبين عذره « فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ » أى فلبث فى الغيبة أمدا غير طويل « فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ » وهى مدينة « بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » أى سرير تجلس عليه ، هائل مزخرف بأنواع الجواهر « وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا۟ » أى هلّا يسجدون . كما قرىء بذلك . وجوّز بعضهم أن يكون معمولا لما قبله . أى فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا ، فحذف الجار مع (أن) أو أن تكون (لا) مزيدة ، والمعنى : فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا « لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى يظهر ما هو مخبوء فيهما من نبات ومعادن وغيرهما « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قرئ بالتاء والياء على صيغة الغيبة . والجملة التحضيضية إما مستأنفة من كلامه تعالى ، أو محكيّة عن قول الهدهد . واستظهر الزمخشرىّ الثانى . قال : لأن فى إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد ، لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض . وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض ، جلت قدرته ولطف علمه . ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة النّظار بنور الله ، مخايل كل مختص بصناعة أو فن من العلم ، فى روائه ومنطقه وشمائله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ)

« ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ » أى المحيط بالشمس وسائر الكواكب وكل شىء. فما أصغر عرشها فى جنب عظمته ! وما أضعف معبودها ـ الشمس ـ فى جانب قدرته!

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم السجدات . قال الزمخشرىّ : لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها. وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ)

[٢٨] (ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ)

[٢٩] (قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ)

[٣٠] (إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

[٣١] (أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ)

[٣٢] (قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ)

« قَالَ » أى سليمان « سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ » أى حسن مضمونه ومافيه « إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » أى لا تتكبروا علىّ ، وأتونى منقادين لأمرى « قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » أى لا أبت

أمراً إلا بحضركم ومشورتكم . ولا أستبدّ بقضاء إلا باستطلاع آرائكم والرجوع إلى استشارتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ)

[٣٤] (قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ)

[٣٥] (وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ)

« قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ » أى فى العَدد والمُدد « وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى نجدة وبلاء فى الحرب « وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ » أى وأمر القتال أو الصلح مفوض إلى رأيك . فانظرى ما هو أبقى لشرفك ولملكك « قَالَتْ » أى مشيرة إلى اختيار خطة المسالمة وإيثارها ، بالنظر لحالتها ومركزها وضعفها أمام عدوّها ، بأن القتال إنما يؤثر إذا لم يغلب على الظن دخول العدوّ فى قرية العدوّ . وألا تعيّن الانقياد . وذلك معنى قولها « إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً » أى عنوة وقهرا « أَفْسَدُوهَا » أى أخربوها « وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً » أى بالقهر والغلبة والقتل والأسر ونهب الأموال « وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » تأكيد لما وصفت من حالهم ، وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة . وقيل تصديق لها منه تعالى « وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ » أى وإنى سأرسل إلى سليمان وملئه رسلا بهدية توجب المحبة وتشبه الانقياد . من غير اختلال لشرفنا . ثم أنتظر بأى أمر يرجع المرسلون منه ، حتى أعمل على حسب ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ)

[٣٧] (ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ)

[٣٨] (قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ)

[٣٩] (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ، وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ)

[٤٠] (قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ)

«فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ» أى المرسلون منها «قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ» أى من الملك والحكمة والنبوة «خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم» أى فلا أبالى بجميع ما عندكم فضلا عن الهدية «بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ» أى إذا أهدى إليكم مثلها ، أو أهديتم مثلها ، تفرحون استكثاراً أو افتخاراً «ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ» أى مهانون «قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » أى ليختبرنى أأشكر بالطاعة والعمل بالشريعة ، أم أكفر بالمعصية والمخالفة . وقوله تعالى « وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ » كقوله[1] (مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) وكقوله[2] (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ)

[٤٢] (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)

« قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا » أى اجعلوه متنكراً متغيرا عن هيئته وشكله ، كما يتنكر الرجل للناس « نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » أى لمعرفته « فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ » قال المهايمىّ : لم تقل (هو هو) خوفا من التكذيب ، مع نوع من التغيير . ولا (لا) خوفا من التجهيل .

وقال الزمخشرىّ : لم تقل (هو هو) ولا (ليس به) وذلك من رجاحة عقلها . حيث لم تقطع فى المحتمل . أى : فأتت بـ (كأن) الدالة على غلبة الظن .

قال الشهاب : وهذا إشارة إلى أن (كأن) ليس المراد بها هنا التشبيه بل الشك ، وهو مشهور فيها .

وقد أبدى صاحب (الانتصاف) فرقا بين (كأن) و (هكذا) فى التشبيه . وعبارته :

---

(١) [٤١ / فصلت / ٤٦] و [٤٥ / الجاثية / ١٥] . (٢) [٣٠ / الروم / ٤٤].

وفى قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول (هكذا هو) ـ نكتة حسنة . ولعل قائلا يقول : كلتا العبارتين تشبيه . إذ كان التشبيه فيهما جميعا ، وإن كانت فى إحداهما داخلة على اسم الإشارة ، وفى الأخرى داخلة على المضمر ، وكلاهما (أعنى اسم الإشارة والمضمر) واقع على الذات المشبهة . وحينئذ تستوى العبارتان فى المعنى . ويفضل قولها (هكذا هو) بمطابقته للسؤال . فلابد فى اختيار (كَأَنَّهُ هُوَ) من حكمة . فنقول : حكمته ، والله أعلم ، أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه فى التغاير بين الأمرين . فكاد يقول (هو هو) وتلك حال بلقيس . وأما (هكذا هو) فعبارة جازم بتغاير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير . فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة فى التلاوة ، لمطابقتها لحالها ، والله أعلم . انتهى .

وقوله تعالى « وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ » هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، شكراً لله على فضلهم عليها ، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام . أى : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ، وبصحة ما جاء من عنده ، قبل علمها الذى أومأ إليه قولها (كأنه هو) والجملة عطف على مقدر اقتضاه المقام المقتضى ، للإفاضة فى وصفها برجاحة الرأى فى الهداية للإسلام . والتقدير : أصابت فى جوابها وقد رزقت الإسلام ، وعلمت قدرة الله . وأوتينا العلم إلخ . وقيل : إنه من كلام بلقيس ، موصولا بقولها (كأنه هو) ، لا من كلام سليمان . كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها ، فقالت : أوتينا العلم الخ . أى لا حاجة إلى الاختبار لأنى آمنت قبل . وهذا يدل على كمال عقلها .

أو المعنى : علمنا إتيانك بالعرش قبل الرؤية ، أو هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار .

قال ابن كثير : ويؤيد الأول ، أى أنه من كلام سليمان ، أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ)

[٤٤] (قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« وَصَدَّهَا » أى وكان صدها عن الهداية « مَا كَانَتْ تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ * قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ » أى القصر ، أو صحن الدار وكان سليمان عليه السلام اتخذ قصراً بديعا من زجاج ، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه ، ومقدار ما آثره الله به « فَلَمَّا رَأَتْهُ » أى صحنه « حَسِبَتْهُ لُجَّةً » أى ماء عظيما « وَكَشَفَتْ » أى للخوض فيه « عَن سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ » أى ممّلس « مِّن قَوَارِيرَ » أى من الزجاج « قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى » أى بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس « وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى متابعة له فى دينه وعبادته لله وحده لا شريك له .

تنبيهات :

الأول ـ روى كثير من المفسرين ههنا أقاصيص لم تصحّ سندا ولا مخبراً . وما هـذا سبيله ، فلا يسوغ نقله وروايته .

قال الحافظ ابن كثير ، بعد أن ساق ما رواه ابن أبى شيبة عن عطاء مستحسنا له ، ما مثاله : قلت : بل هو منكر غريب جدا . ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم .

ثم قال : والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى صحفهم . كروايات كعب ووهب ، سامحهما الله تعالى ، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب . مما كان ومما لم يكن . ومما حرف وبدل ونسخ .

وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة .

الثانى ـ أشير فى (التوراة) فى الفصل الرابع من سفر الملوك الثالث إلى تفصيل نبأ سليمان عليه السلام وعظمة ملكه وسلطانه . ومماجاء فيه أن سليمان كان متسلطا على جميع الممالك من نهر الفرات إلى أرض فلسطين وإلى تخم مصر . وإن ملوك الأطراف كانوا يحملون له الهدايا خاضعين له كل أيام حياته أى أنها تؤدّى له الجزية ، وإن كان ملكه محصورا فى فلسطين . وأن الله تعالى آتاه حكمة وفهما ذكيا جدا ، وسعة صدر . ففاقت حكمته حكمة جميع أهل المشرق وأهل مصر . وقال ثلاثة آلاف مثل . وتكلم فى الشجر ، من الأرز الذى على لبنان إلى الزوفى التى تخرج فى الحائط . وتكلم فى البهائم والطير والزحافات والسمك . وأما صرحه وبيته عليه السلام ، فقدجاء وصفه فى الفصل الخامس من السفر المتقدم . وأنه أكمل بناءه فى ثلاث عشرة سنة . وأنه بنى جازَرَ وبيت حورون السفلى وبعلت وتدمر فى أرض البرية . وجاء فى الفصل العاشر من هذا السفر أيضا قصة ملكة سبأ ومقدمها من اليمن على سليمان لتخبر حكمته وعظمة ملكه ، ودهشتها مما رأته وتحققته ، وإيمانها بربه تعالى . ثم إعطاؤه إياها بغيتها . ثم انصرافها إلى أرضها .

وقد ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم لا يسوق أنباء ماتقدم سوق مؤرخ، بل يقصها موجزة ليتحقق أنه مصداق مابين يديه ، ومهيمن عليه ، ولينبه على أن القصد منها موضع العبرة والحكمة . ومثار التبصر والفطنة .

الثالث ـ مما استنبط من آيات هذه القصة الجليلة، أن فى قوله تعالى (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا) أنه لا بأس بالتبسم والضحك عند التعجب وغيره . وفى قوله تعالى (وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ) استحباب تفقد الملك أحوال رعيته . وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان ، فأنشد :

تفقدُ الإخوانِ مُسْتَحْسَنُ ... فمن بَدَاهُ نِعْمَ مَاقَدْ بَدَا

سَنَّ سليمانُ لنا سُنَّةً ... وكان فيما سنّه مُقْتَدَى

تفقَّدَ الطير على مُلْكِهِ ... فقال : مَالِى لَا أَرَ الْهُدْهُدَا!

وأن فى قوله تعالى (لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا) الآية، دليلا على أن العذاب على قدر الذنب، لا على قدر الجسد . وعلى جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها فى المشى وإسراعها ونحو ذلك. وأن فى قوله تعالى (قَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ) أن الصغير يقول للكبير والتابع للمتبوع : عندى من العلم ماليس عندك ، إذا تحقق ذلك . وأن فى قوله تعالى (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ) قبول الوالى عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم ، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به . وأن فى قوله تعالى (ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ) إرسال الطير بالكتب . وأن فى قوله تعالى (كِتَٰبٌ كَرِيمٌ) استحباب ختم الكتب ، لقول السدّى : كريم بمعنى مختوم . وأن فى قوله تعالى (قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى) المشاورة والاستعانة بالآراء فى الأمور المهمة . وأن فى قوله تعالى (أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ) الآية ، استحباب رد هدايا المشركين . كذا فى (الإكليل) بزيادة .

ثم أخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيّها صالح عليه السلام ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)

[٤٦] (قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ، لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[٤٧] (قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ، قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ)

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ»

أى فريق مؤمن وفريق كافر . يختصمون خصومة لا يرجع فيها المبطل إلى الحق بعد ما تبين له. كقوله تعالى[1] (قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ، قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ* قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُمْ بِهِۦ كَٰفِرُونَ) «قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ » أى بالعقوبة السيئة قبل التوبة الحسنة. أى لم تدعون بحضور العقوبة ولا تطلبون من الله رحمته بالإيمان «لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا» أى تطيرنا أى تشاءمنا « بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ » أى من المؤمنين . وقد كانوا ، لشقائهم ، إذا أصيبوا بسوء قالوا : هذا من قبل صالح وصحبه «قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ » أى سببكم الذى يجىء منه خيركم وشركم عند الله . وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم . قاله الزمخشرىّ .

قال الشهاب : لما كان المسافر من العرب إذا خرج مرّ به طائر سانحا ، وهو ما وليه بميسرته ، أو بارحا وهو ما وليه بميمنته ـ تيمنوا بالأول وتشاءموا بالثانى . ونسبوا الخير والشر إلى الطائر. ثم استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته . أو من عمل العبد الذى هو سبب الرحمة والنقمة . ومنه (طائر الله ، لا طائرك) « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ » أى مفتونون بضلالكم وكفركم. لا ترون حسنا إلا ما يوافق هواكم، ولا شؤما إلا يخالفه. ثم أخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسائهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر، وتكذيب صالح عليه السلام، وما آل بهم الأمر ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

---

(١) [٧ / الأعراف / ٧٥ و ٧٦] .

[٤٩] (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

[٥٠] (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥١] (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٥٢] (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

«وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» أى شأنهم وعادتهم الإفساد ، كما يفيده المضارع وتأكيده بقوله (فِي الْأَرْضِ) الدال على عموم فسادهم. وهو صفة (رهط) أو (تسعة) « قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ » أى ليحلف كل واحد منكم على موافقة الآخرين، بالله الذى هو أعظم المعبودين « لَنُبَيِّتَنَّهُ » أى لنقتلنه ليلا . وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض « وَأَهْلَهُ » أى من آمن معه . « ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ » أى الطالب ثأره علينا «مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ » أى ما حضرنا مكان هلاك الأهل، مع تفرقهم فى الأماكن الكثيرة، فضلا عن مكانه ، فضلا عن مباشرته « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى ونحلف إنا لصادقون . أو : والحال إنا لصادقون فيما ذكرنا «وَمَكَرُوا مَكْرًا» أى بهذه الحيلة «وَمَكَرْنَا مَكْرًا» أى بأن جعلناها سببا لإهلاكهم « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً » أى خالية ساقطة .لم تعمر بعدهم لأنهم استؤصلوا « بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» أى بأنهم ما أخذوا إلا لظلمهم . وإن عاقبة الظلم الدمار والبوار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[٥٤] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

[٥٥] (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

[٥٦] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

[٥٧] (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ)

[٥٨] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ، فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ)

[٥٩] (قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ، ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » يعنى صالحاً عليه السلام ومن معه « وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ »أى قبحها ومضادّتها لحكمه تعالى وحكمته « أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ » أى متجاوزين النساء اللاتى هن محالّ الشهوة « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى تفعلون فعل الجاهلين سفها وعمى عن العاقبة «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ »أى يتنزهون عن أفعالنا ويرونها رجساً . قالوه استهزاء« فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ »أى الباقين فى العذاب «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا »أى هائلا غير معهود « فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ * قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » قال الزمخشرىّ : أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الفاطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شىء وحكمته . وأن يستفتح بتحميده ، والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما، على قبول ما يلقى إلى السامعين، وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المُسْمِع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب . فحمدوا الله عز وجل ، وصلوا على رسول الله ﷺ ، أمام

كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وتذكرة ، وفى مفتتح كل خطبة . وتبعهم المترسلون . فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن . وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم . والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين .

ثم قال : معلوم أن لاخير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه . وإنما هو إلزام لهم وتبكيت وتهكم بحالهم . وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله . ولا يؤثر عاقل شيئاً على شىء ، إلا لداع يدعوه إلى إيثاره ، من زيادة خير ومنفعة. فقيل لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير، ولكن هوى وعبثاً، لينبّهوا على الخطأ المفرط ، والجهل المورّط . وإضلالهم التميز ونبذهم المعقول . وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد . ونحوه ما حكاه[1] عن فرعون (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ) مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التى كانت تجرى تحته.

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله، كما عددها فى موضع آخر. ثم قال (هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ) .

لطيفة:

قال ابن القيم فى (طريق الهجرتين) فى هذه الآية : كلمة (السلام) هنا تحتمل أن تكون داخلة فى حيزالقول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية، وهى (الحمد لله) ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معاً . وعلى هذا ، فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ، ويكون محلها النصب محكيّة بالقول .

ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب . وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٢] .

وهذا التقدير أرجح ، وعليه يكون السلام من الله عليهم . وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلى الله عليهم وسلم .

وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم .

ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر مابينهما . فلا يحسن أن يقول : قم وذهب زيد . ولا اخرجْ وقعد عمرو .

ويجاب على هذا بأن جملة الطلب ، قد حكيت بجملة خبرية ، ومع هذا لا يمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه .

وهذا نظير قوله تعالى[1] (قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) .

فقوله (وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ) ليس معطوفاً بالقول وهو (انظروا) بل معطوف على الجملة الكبرى .

على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى[2] (قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ، وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) وقوله[3] (وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ) .

والمقصود أنه على هذا القول ، يكون الله سبحانه قد سلّم على المصطفين من عباده ، والرسلُ أفضلهم . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)

(١) [١٠ /يونس/ ١٠١].(٢) [٢١ /الأنبياء/ ١١٢] . (٣) [٢٣ /المؤمنون/١١٨].

[٦١] (أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٢] (أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٦٣] (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ » إضراب وانتقال، من التبكيت تعريضاً، إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد. أى: بل من خلق السموات والأرض، وأودع فيهما من المنافع مالا يحصى « وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ » أى بساتين ذات حسن ورونق يبهج النظار « مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ » أى : أإله آخر كائن مع الله، الذى ذكر بعض أفعاله، التى لايكاد يقدر عليها غيره، حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى فى العبادة؟ وهذا تبكيت لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به تعالى، فى ضمن النفى الكلى على الطريقة البرهانية، بعد تبكيتهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من الترديد. قاله أبو السعود « بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » أى عن طريق الحق . أو به تعالى غيره . « أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا » أى قارة لاتنكفئ بمن عليها. أو مستقراً لمن عليها، يتمتعون بمنافعها « وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا » أى برزخاً مانعاً من الممازجة « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ » أى فى الوجود، أو فى إبداع هذه البدائع « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئاً من الأشياء . ولذلك لايفهمون بطلان ماهم عليه من الشرك، مع كمال ظهوره « أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » وهو الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر ، إلى اللجأ والتضرع إلى الله تعالى . اسم مفعول من (الاضطرار) الذى هو افتعال من

(الضرورة) وهى الحالة المحوجة إلى اللجأ أى الالتجاء والاستناد .

قال ابن كثير : ينبّه تعالى أنه المدعوّ عند الشدائد ، الموجود عنـد النوازل ، كما قال تعالى[١] « وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ » وقال تعالى[٢] (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ » وهكذا قال هٰهنا (أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه ؟

وقال ابن القيم فى (الجواب الـكافى): إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف انـكساراً بين يدى الرب وذلّاله وتضرعاً ورقة ، ثم توسل إليه تعـالى بأسمائه وصفاته وتوحيده ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً . ولاسيما إن صادف الأدعية المأثورة عن النبىّ ﷺ ، أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم .

ثم ساقها ابن القيم مسندة .

ثم قال : وكثيراً مانجـد أدعية دعا بهـا قوم فاستجيب لهم . فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجيبت دعوته . فيظن الظانّ أن السر فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً ، فى الوقت الذى ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى . فانتفع به . فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده ، كاف فى حصول المطلوب ، كان غالطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس . ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب . فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى الله . انتهى .

وقوله تعالى « وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ » أى كل ما يسوءه مما يضطر فيه وغيره « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ » أى خلفاء فيها . وذلك توارثهم سكناها ، والتصرف فيها قرناً بعد قرن.

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٧] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٣] .

أو أراد بالخلافة الملك والتسلط . قاله الزمخشرىّ « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ* أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ » أى بالنجوم فى السماء ، والعلامات فى الأرض ، إذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر « وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ » وهى المطر « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٦٥] (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

« أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ » أى بعد الموت بالبعث . فإن قيل : هم منكرون للإعادة ، فكيف خوطبوا بها خطاب المعترف؟ أجيب بأنها لظهورها ووضوح براهينها، جعلوا كأنهم معترفون بها ، لتمكنهم من معرفتها ـ فلم يبق لهم عذر فى الإنكار. فلا حاجة إلى القول بأن منهم من اعترف بها ، فالكلام بالنسبة إليه « وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى مما ينزله من مائها وما يخرجه من نباتها « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت. أى هاتوا برهانا عقليا أو نقليا، يدل على أن معه تعالى إلٰهاً. لا على أن غيره تعالى يقدر على شىء مما ذكر من أفعاله تعالى، فإنهم لا يدعونه صريحا . وفى إضافة (البرهان) إلى ضميرهم ، تهكم بهم . لما فيها من إيهام أن لهم برهانا . وأنّى لهم ذلك؟ قاله أبو السعود « قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ » أى فإنه المتفرد بذلك وحده، كما قال[1] (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ) فى آيات

(١) [٦ / الأنعام / ٥٩] .

لا تحصى. والاستثناء منقطع ، لاستحالة أن يكون تعالى ممن فى السماء والأرض. أو متصل، على أن المراد ممن فى السموات والأرض ، من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها مجازا مرسلا أو استعارة . فإنه يعمّ الله تعالى وأولى العلم من خلقه « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى متى ينشرون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ)

« بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ » قال السمين : فيه وجهان : أحدهما ـ أن (فى) على بابها ، و (ادّارك) وإن كان ماضيا لفظا ، فهو مستقبل معنى . لأنه كائن قطعا . كقوله[1] « أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ) .

وعلى هذا فـ(فى) متعلق بـ(ادّارك) .

والثانى ـ أن (فى) بمعنى الباء . أى بالآخرة .

وعلى هذا فيتعلق بنفس علمهم . كقولك (علمى بزيد كذا) انتهى .

والوجه الثانى على الاستفهام . أى بل هل ادّارك علمهم فيها ، أى بلغ وانتهى ؟ كلا .

وقد قرىء (بل أءدرك) بهمزتين و (بل آءدرك) بألف بينهما و (أم أدرك)و(أم تدارك)

قال الرازىّ : وهى (أم) التى بمعنى (بل) والهمزة . فالمعنى على الاستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم بها ، وأنهم لم يبرحوا فى حضيض الجهالة بحقيتها ، مع ما يتلى عليهم من أدلة ثبوتها .

وقد جنح إلى الكلام على تقدير الاستفهام ، السيوطىّ والمهايمىّ . وذهب غيرهما إلى إبقاء (بل) على أصلها من الإضراب الانتقالىّ. وقرروه بما فيه خفاء ودقة. ويبعده ما ذكرنا

---

(١) [١٦ / النحل / ١] .

من القراءات الصريحة فى الاستفهام. وهى مما يرجع إليها إذا اشتبه المقام. كما تقرر فى قواعد التفسير « بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا » أى مرية ، مع تقرير ما يزيله ويكشف غشاوته « بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ » أى فى عماية وجهل كبير .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها ؟ قلت : ما هى إلا تنزيل لأحوالهم : وَصَفَهُم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث . ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة. ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه . والإزالة مستطاعة . ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض ، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم ، لا يشخص به طلب التميز بين الحق والباطل ؟ ثم بما هو أسوأ حالا ، وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يُخْطِر بباله حقا ولا باطلا ولا يفكر فى عاقبة . وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه . فلذلك عداه بـ(من) دون (عن) لأن الكفر بالعاقبة والجزاء ، هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ)

[٦٨] (لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٦٩] (قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ)

[٧٠] (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى بوعد الله وآياته وعلمه وقدرته وحكمته « أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ » أى من القبور « لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى سطروها بعبارة مموّهة « قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى لتبصروا آثار القائلين هذا القول قبلكم « فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ

عَـقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ » بإنـكاره . وهى دمارهم وهلا كهم بالاستئصال « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى على قولهم وتـكذيبهم. فإنه سيكون لك من المصدقين من لا يبالى معهم بهؤلاء، كقوله تعالى[1] (فَلَعَلَّكَ بَٰخِـعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا) « وَلَا تَـكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْـكُرُونَ » أى فى حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك. ولا تبال بذلك، فإن الله يعصمك من النـاس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

[٧٢] (قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَـكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ)

[٧٣] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْـكُرُونَ)

[٧٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُـكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

[٧٥] (وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ)

[٧٦] (إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ » أى بالعذاب « إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَـكُونَ رَدِفَ لَـكُم » أى لحقـكم أودنا لـكم « بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ » أى من العذاب، فحصل لهم القتل ببدر . ولعذاب الآخرة أمرّ . قال الزمخشرىّ : و(عسى) و(لعلّ) و(سوف) فى وعد الملوك ووعيدهم ، يدل على صدق الأمر وجدّه ، وما لا مجال للشك بعده. وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجلون بالانتقام ، لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ، ووثوقهم أن عدوّهم لا يفوتهـم ، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم . فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده. انتهى. أى لأن حقيقة الترجّى محال فى حقه تعالى. فهو على هذا استعارة تمثيلية. قاله

(١) [١٨ / الـكهف / ٦] .

الشهاب « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى لذو إفضال وإنعام عليهم ، بتأخير العقوبة وعدم معاجلتهم بها . ولكن أكثرهم لايعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه ، بل بجهلهم يستعجلونها « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من عداوة رسوله ونصب المكايد له. وهو معاقبهم على ذلك «وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ » أى ومامن خافية فيهما، إلا وقد علمها الله وأحاط بها وأثبتها فى اللوح البيّن ، المثبت فيه مقدوراته تعالى . أو المراد بالكتاب القضاء العدل ، على طريق الاستعارة ، بتشبيهه بالكتاب الجامع للوقائع ، كالسجل « إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فهو مصدق لما بين يديه، ومهيمن عليه . يقص القصص الحق ، ويفصل بين ما اختلفوا فيه بالصدق . فالمعوّل من أنبائهم عليه ، ومردّ ما اختلفوا فيه إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

[٧٨] (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ)

[٧٩] (فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ)

[٨٠] (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ)

[٨١] (وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ، إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ)

« وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى بما فيه من إقامة الدلائل ورفع الشبه التى يعقلها المؤمنون المنصفون المصدقون بالحق، المذعنون له « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ » أى بين مَنْ آمن بالقرآن ومن كفر به ، بعدله وحكمته « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى فلا يردّ قضاؤه الغالب

فى انتقامه من المبطلين «ٱلْعَلِيمُ» أى بالفصل بينهم وبين المحقّين . ثم أمره تعالى بقلة المبالاة بأعدائه، وبالمضىّ فى دعوته وانتظار الوعد الحق، بقوله «فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ» أى الأبلج الذى لا ريب فيه . قال الزمخشرىّ : وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل. ثم أشار تعالى إلى كفاية نفع دعوته للمؤمنين، الذين هم أولياؤه وحزبه ، وإلى أن الكل لا يرجى منهم الهداية، كآية[1] (وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) تسلية عما كان يهمه من إيمانهم ، بقوله سبحانه « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ *وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ » قال الزمخشرىّ : شبّههوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقماع القول ، لا تعيه آذانهم . وكان سماعهم كلا سماع . كانت حالهم ، لانتفاء جدوى السماع ، كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع، وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ، وأن يجعلهم هداة بصراء ، إلا الله عز وجل. فإن قلت: ما معنى قوله(إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ)؟ قلت : هو تأكيد لحال الأصمّ. لأنه إذا تباعد عن الداعى ، بأن يولّى عنه مدبرا ، كان أبعد عن إدراك صوته . انتهى .

وإيراد قوله (وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ) إثر ما تقدم ، للمبالغة فى نفى الهداية . وقوله تعالى (إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا) أى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا ، إلّا من شأنه الإيمان بها . وقوله (فَهُم مُّسْلِمُونَ) تعليل لإيمانهم بها . كأنه قيل : فإنهم منقادون للحق . وقيل : معناه مخلصون ، من قوله[2] (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ) يعنى جعله سالماً لله خالصا له .

---

(١) [١٢ / يوسف/١٠٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١١٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ)

« وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ » اعلم أن فى هذا الوعيد وجوها من التأويل :

الأول ـ أنه دنيوىّ ، عنى به نصر الرسول صلوات الله عليه ، عليهم . والمعنى أن أولئك الصم عن سماع الآيات ، العمى عن النظر فيها ، الجاحدين لها ، سيأتيهم أنباء حقيقة ما كانوا يدعون إليه من نصر الداعى وهو الرسول وأتباعه ، وتكثير سوادهم حتى يظفروا بمناوئيهم. ويظهروا على عدوّهم . وذلك بأن تدبّ إليهم من المؤمنين دابة عظمى تملأ السهل والربى ، تزلزل أركانهم وتهدم بنيانهم وتقوض خيامهم وتدكّ أعلامهم . فتكلمهم حينئذ بلسان الحال أو المقال ، بأنهم إنما أخذوا بالعقاب ، وحل بهم شديد العذاب لضلالهم وإضلالهم العباد . وسعيهم فى الأرض الفساد . فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح . وقائد الفلاح والنجاح ، وقد سبقت كلمته لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جنده لهم الغالبون . وقد صدق الله وعده . وأعز جنده .

والوجه الثانى ـ أن الدابة حيوان بخلاف ما نعرفه . يختص خروجها بحين القيامة ، قال بعضهم : والمعنى إذا قامت القيامة بعث الله نوعا مخصوصا من دواب هذه الأرض ، كما يبعث غيره من أنواع الدواب الأخرى . وينطقه فيوبخ الإنسان على كفره ، كما ينطق أعضاءه فى ذلك اليوم أيضا . قال : فليس المراد من قوله (دَآبَّةً) الفرد، بل النوع. كما فى قولك (أرسل الله عليهم دودة أتلفت زرعهم) أى ديدانا كثيرة ، من نوع واحد مخصوص . اهـ .

وقد روى فيها أحاديث وآثار كثيرة ، لم يصحح البخارىّ منها شيئا، لاضطراب متونها

وضعف رجالها . وأمثل مأثورها ما أخرجه مسلم[1] عن عبد الله بن عمرو مرفوعا (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى. وأيهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريبا) .

ومعلوم أن أمور الآخرة من عالم الغيب . ولا يؤخذ فيها إلا بما كان قطعيّ الثبوت .

الوجه الثالث ـ نقله الراغب فى مفرداته قال : وقيل عنى بالدابة الأشرار الذين هم فى الجهل بمنزلة الدواب. فتكون الدابة جمعا، اسما لكلّ مايدبّ. نحو (خائنة) جمع خائن. انتهى.

ولعل الآية كقوله تعالى[2] (حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ) فإن يأجوج ومأجوج كالدابة ، لما يغطى بدبيبه وجه الأرض ـ فهو مثل فى الكثرة . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[٨٤] (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ »أى يحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا فيكبكبوا فى النار. وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه. كما وصفت جنود سليمان بذلك . وكذلك قوله (فَوْجًا) ، فإن الفوج الجماعة الكثيرة . أفاده الزمخشرىّ « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو » أى إلى المحشر « قَالَ » أى ليفضحهم فى هذا اليوم المشهود

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ١١٨ (طبعتنا)

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٦و٩٧] .

« أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى » أى الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله « وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا » جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه. ومؤكدة للإنكار والتوبيخ. أى أكذبتم بها بادئ الرأى، غير ناظرين فيها نظراً يؤدى إلى العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق حتما؟ وهذا نص فى أن المراد بالآيات ، فيما سلف فى الموضعين ، هى الآيات القرآنية . لأنها هى المنطوية على دلائل الصحة ، وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بهـا علماً ، مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها . لانفس الساعة وما فيها . أفاده أبو السعود «أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى بها . أو ماذا كان عملكم ؟ هل هو إلا الفساد والإفساد ؟ وصد السبيل عن العباد ؟ ولذا حقت كلمة العذاب عليهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ)

[٨٦] (أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٨٧] (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ)

[٨٨] (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ، صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ، إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[٨٩] (مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ)

« وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ » أى مدلوله وهو العقاب الموعودون به « عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ* أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا »أى ليبصروا، بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب فى أمور المعاش « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* وَيَوْمَ

يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ » أى حضروا الموقف بين يديه « دَٰخِرِينَ » أى صاغرين « وَتَرَى ٱلْجِبَالَ » عطف على (ينفخ) داخل فى حكم التذكير « تَحْسَبُهَا جَامِدَةً » أى ثابتة فى أماكنها « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ » أى فى تخلل أجزائها وانتفاشها . كما فى قوله تعالى[1] (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ) « صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ » أى فيجازيهم عليه .

تنبيه :

ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية هو ما ذهب إليه كثير . قالوا : المراد بهذه الآية تسيير الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، حينما يبيد الله تعالى العوالم ، كما قال[2] (وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) وكما قال[3] (وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ) وقال[4] (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ) .

وقال بعض علماء الفلك : لا يمكن أن يكون المراد بهذه الآية ما قالوه ، لعدة وجوه :

الأول ـ أن قوله تعالى (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) لا يناسب مقام التهويل والتخويف إذا أريد بها ما يحصل يوم القيامة . وكذلك قوله[5] (صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة ، على أن محل هذه الآية على المستقبل ، مع أنها صريحة فى إرادة الحال ، شىء لا موجب له . وهو خلاف الظاهر منها .

الثانى ـ أن سير الجبال للفناء يوم القيامة ، يحصل عند خراب العالم وإهلاك جميع الخلائق وهذا شىء لا يراه أحد من البشر كما قال[6] (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ) أى من الملائكة . فما معنى قوله[7] إذن (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) ؟

(١) [١٠١ / القارعة / ٥] . (٢) [٧٨ / النبأ / ٢٠] . (٣) [٧٧ / المرسلات / ١٠] .
(٤) [١٠١ / القارعة / ٥] . (٥) [٢٧ / النمل / ٨٨] . (٦) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .
(٧) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثالث ـ أن تسيير الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، إذا رآه أحد شعر به . لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان ، فيحسّ بحركتها . وهذا ينافى قوله تعالى (تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) أى ثابتة . أما فى الدنيا فلا نشعر بحركتها ، لأننا نتحرك معها ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها . وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة . فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنسف نسفاً . وهذا شىء يراه كل واقف عندها .

الرابع ـ ورود هذه الآية فى سياق الكلام على يوم القيامة ، لورود آية (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) المذكورة قبلها فى نفس هذا السياق ، والمراد بهما ذكر شىء من دلائل قدرة الله تعالى ، المشاهدة آثارها فى هذا العالم الآن من حركة الأرض وحدوث الليل والنهار ، ليكون ذلك دليلا على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة فإن القادر على ضبط حركات هذه الأجرام العظيمة ، لا يصعب عليه أن يعيد الإنسان ، وأن يضبط حركاته وأعماله ويحصيها عليه . ولذلك ختم هذه الآية بقوله (إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) فذكر هذه الأشياء فى هذا السياق ، هو كذكر الدليل مع المدلول ، أو الحجة مع الدعوى . وهى سنة القرآن الكريم . فإنك تجد الدلائل منبثة بين دعاويه دائماً ، حتى لا يحتاج الإنسان لدليل آخر خارج عنها . وذلك شىء مشاهد فى القرآن من أوله إلى آخره . اهـ كلامه .

وقال العلامة المرجانىّ فى مقدمة كتابه (وفيّة الأسلاف ، وتحيّة الأخلاف) فى بحث علم الهيئة ، ما مثاله :

ويدل على حركة الأرض قوله تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) الآية . فإنه خطاب لجناب الرسول ﷺ ، وإيذان الأمر له بالأصالة مع اشتراك غيره فى هذه الرؤية . وحسبان جمود الجبال وثباتها على مكانها ، مع كونها متحركة فى الواقع بحركة الأرض ، ودوام مرورها مرّ السحاب فى سرعة السير والحركة . قال : وقوله (صُنْعَ اللَّهِ) من المصادر المؤكدة لنفسها . وهو مضمون الجملة السابقة . يعنى أن هذا المرور هو صنع الله .

كقوله تعالى[١] (وَعْدَ ٱللَّهِ)[٢] (صِبْغَةَ ٱللَّهِ) ثم (الصنع) هو عمل الإنسان، بعدتدرّب فيه وتروٍّ وتحرى إجادة . ولا يسمى كل عمل صناعة، ولا كل عامل صانعاً، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه . وقوله (ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) كالبرهان على إتقانه ، والدليل على إحكام خلقته ، وتسوية مروره على ما ينبغى . لأن إتقان كل شىء ، يتناول إتقانه . فهو تثنية للمرادوتكرير له ، كقوله تعالى[٣] (وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ) قال: وقد اشتملت هذه الآية على وجوه من التأكيد ، وأنحاء من المبالغة . فمن ذلك تعبيره (بالصنع) الذى هو الفعل الجميل المتقن المشتمل على الحكمة . وإضافته إليه تعالى ، تعظيما له وتحقيقاً لإتقانه وحسن أعماله . ثم توصيفه سبحانه بإتقان كل شىء، ومن جملته هذا المرور. ثم إيراده بالجملة الاسمية الدالة على دوام هذه الحالة واستمرارها مدى الدهور. ثم التقييد بالحال، لتدل على أنها لاتنفك عنها دائماً . فإن قوله تعالى (وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ) حال من المفعول به، وهو الجبال . ومعمول لفعله الذى هو رؤيتها على تلك الحال .

فهذه الآية صريحة فى دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها فى هذه النشأة . وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع فى النشأة الآخرة ، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام . وأن حسبانها جامدة لعدم تبين حركة كبار الإجرام إذا كانت فى سمت واحد . فإن ذلك لايلائم المقصود من التهويل على ذلك التقدير . على أن ذلك نقض وإهدام ، وليس من صنع وإحكام . قال: والعجب من حذاق العلماء المفسرين، عدم تعرضهم لهذا المعنى ، مع ظهوره واشتمال الكتب الحكمية على قول بعض القدماء. مع أنه أولى وأحق من تنزيل محتملات كتاب الله على القصص الواهية الإسرائيلية، على ماشحنوا بها كتبهم. وليس هذا بخارج عن قدرة الله تعالى ، ولا بعيد عن حكمته ، ولا القول به بمصادم للشريعة والعقيدة الحقة ، بعد أن تعتقد أن كل شىء حادث بقدرة الله تعالى وإرادته وخلقه بالاختيار، كائنا ما كان ، وهو العلىّ الكبير ، وعلى مايشاء قدير .

(١) [٤ / النساء / ١٢٢] . (٢) [٢ / البقرة / ١٣٨] (٣) [٣ / آل عمران / ٩٧]

واعلم أن هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى (أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ) الآية ، اعتراض فى تضاعيف ماساقه من الآيات الدالة على أحوال الحشر وأهوال القيامة، كاعتراض توصية الإنسان بوالديه فى تضاعيف قصة لقمان . ومثل ذلك ليس بعزيز فى القرآن .

وفائدته هنا، التنبيه على سرعة تقضّى الآجال ومضىّ الآماد. والتهويل من هجوم ساعة الموت وقرب ورود وقت المعاد . فإن انقضاء الأزمان ، وتقضى الأوان ، إنما هو بالحركة اليومية المارّة على هذه السرعة المنطبقة على أحوال الإنسان . وهذا المرور . وإن لم يكن مبصرا محسوسا ، لكن ماينبعث منه تبدل الأحوال ، بما يطرأ من تعاقب الليل والنهار وغيره ، بمنزلة المحسوس المبصر [(١)] (فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ) فيكون هذا معجزة للنبىّ ﷺ ، مخصوصة به ، إذ لم يخبر به غيره من الأنبياء .

فليس بممكن حمل الآية على تسيير الجبال الواقع عند قيام الساعة ووفاء النشأة الآخرة . إذ ليس هو من (الصنع) فى شيء . بل هو إفساد أحوال الكائنات ، وإخلال نظام العالم ، وإهلاك بنى آدم . اهـ . كلام المرجانىّ .

«مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ» أى لايعتريهم ذلك الفزع الهائل . وقرئ (فَزَعِ يَوْمِئِذٍ) بالإضافة وكسر الميم وفتحها . وفزع منونا وفتح الميم ، على أنه ظرف (لآمنون) أو المحذوف هو صفة للفزع . والتنوين فى (يومئذ) عوض عن جملة محذوفة ، أى يوم إذ جاءوا بالحسنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٩١] (إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] .

[٩٢] (وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ، فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ)

[٩٣] (وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

«وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى من الشرك والمعاصى «إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ» أى مكة «ٱلَّذِى حَرَّمَهَا» أى جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها. وفيه تعريض بجحدهم نعمته تعالى فى ذلك ، حيث آمنهم من خوف ، وأجلّهم فى أعين القبائل ، ووقاهم من الفتن المنتشرة عند غيرهم ، إجلالاً لهذا البيت. وهم لم يرعوا هذه النعمة بالقيام بواجب شكرها ، من عبادته تعالى وحده ، وسعيهم بالإصلاح «وَلَهُ وَكُلُّ شَىْءٍ» أى خلقا وملكا. فهو خالق كل شىء ومليكه « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ » أى ممن أسلم وجهه لله ، لا لغيره «وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ» أى عليكم ، تلاوة الدعوة إلى الإيمان به ، لما اشتمل عليه من سعادة الدارين «فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ» أى فمن اتبع ما فيه من توحيد الله ، ونفى الأنداد عنه ، والدخول فى الملة الحنيفية ، واتباع ما أنزل علىّ من الوحى ، فمنفعة اهتدائه راجعة إليه ، لا إلىّ «وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ » أى ومن ضل عن الإيمان وأخطأ بزيغه طريق الهدى ، ولم يتبعنى ، فلا علىّ. وما أنا إلا رسول منذر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين «وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» أى على ما هدانا لهذا الدين ، ومنّ علينا بصراطه المستقيم « سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا » كقوله تعالى[1] سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ) وقوله[2] (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ) «وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى من الشرك والتكذيب ونصب المكايد . بل هو شهيد رقيب ، جل جلاله وعظم نواله ، ولا إله غيره.

---

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] . (٢) [٣٨ / ص ٨٨] .